٤٩ أبو الحسن الشاذلى فى حميثرى خبره اليقين

إمام الطريقة الشاذلية أبو الحسن الشاذلى، واسمه كما ورد فى كتب الطبقات والسير هو على بن عبد الله بن عبد الجبار الذى ينتهى نسبه إلى جده الإمام الحسن ابن على بن أبى طالب رضى الله عنهما. ولد بقرية «غُمَارة» التابعة لمدينة سبتة المغربية عام ٥٩٣. وبها نشأ وتلقن بداية تعليمه. ومن هذه القرية المغربية الصغيرة انطلق أبو الحسن الشاذلى إلى غيرها من بلدان المغرب لينتقل إلى المشرق، حيث سافر إلى العراق، وهناك التقى بأبى الفتح الواسطى عام ٦١٨ هـ وكان للقائه بالواسطى أثر كبير فى حياته، فحين اجتمع الشاذلى بهذا القطب العراقى الكبير قال له: «جئت العراق لألتقى بقطبها». وهنا رد عليه الواسطى: «أتطلب القطب بالعراق، والقطب ببلدك المغرب؟». ورجع إلى المغرب. والتقى بقطب زمانه أبى محمد عبد السلام بن مشيش، شيخه فيما بعد، وأستاذه الروحى، وموجه حياته.

صحب أبو الحسن الشاذلى شيخه ابن مشيش فترة من الزمن استطاع فيها أن يستفيد من علمه الغزير، وفى ذات يوم قال له ابن مشيش: «يا على، ارتحل إلى إفريقيا، واسكن بها بلداً تسمى «شَاذُلَة» فإن الله سبحانه وتعالى يسميك الشاذلى. . وبعد ذلك تنتقل إلى تونس ويؤتى عليك من قِبَلْ السلطة، وبعد ذلك تنتقل إلى بلاد المشرق وترث فيها القطبانية.

وصدع الشاذلى لأمر أستاذه ابن مشيش، وارتحل إلى شاذلة. وفى غار بجبل زغوان بتونس، مطل على شاذلة، سكن أبو الحسن الشاذلى، وشُغل بالعبادة واصلاً الليل بالنهار فى صلاة وصيام. وطالت إقامته بهذه القرية «شاذلة» حتى اشتهر وذاع صيته. . وعُرِف منذ ذلك الحين بالشاذلى. . وبدأ الناس يقصدونه -

كما يسجل الأستاذ الدكتور عامر النجار فى كتابه «الطرق الصوفية فى مصر».. حتى أنه اضطر للخروج من رباطه فى أعلى الجبل متخذاً له داراً بمدينة تونس.

وهكذا أصبحت دروس أبى الحسن الشاذلى ومواعظه وتعاليمه من الأمور التى يحرص عليها مئات المريدين والتلاميذ، وبدأت مجالس علمه تتعدد وتتسع، فكان إذا جلس للدرس التف حوله المريدون والأتباع، وإذا سار مشى فى ركبه الكثيرون أيضاً.

ولعله بسبب هذا الأمر استهدف لكيد الحاقدين عليه ودسائسهم وفى مقدمة هؤلاء قاضى القضاة بمدينة تونس أبو القاسم بن البراء الذى كاد له ودَسَّ عند سلطان تونس وقتئذ، متهماً إياه بأنه جاسوس فاطمى جاء من المغرب ليتآمر عليه، مستنداً فى ذلك إلى نسبه الذى ينتهى إلى الحسن بن على وفاطمة الزهراء رضوان الله عليهم.

وقد انطلت هذه الفرية على السلطان، وخاصة أن تونس كانت من قبل فاطمية، وأن كلمة «قطب» يمكن أن تخفى وراءها معنى الإمام الفاطمى.

ويبدو أن هذه المكيدة قد احتلت جزءاً كبيراً من اهتمام المؤرخين لأبى الحسن الشاذلى قدامى ومحدثين، وإلا فما معنى أن يحدثنا عنها ابن الصباغ ـ وقد نقله بتصرف الدكتور عامر النجار ـ من كتابيه «درة الأسرار» و«المفاخر العلية»، يقول ابن الصباغ: «إن ابن البراء أبلغ السلطان قائلا له: إن رجلا من أهل شاذلة، سراق الحمير، يَدعِى الشرف، ويَدّعى أنه الفاطمى، ويشوش عليك فى بلادك... واتهمه بالكفر والزندقة».

وهنا أمر السلطان بأن يُعْقَدَ مجلس يحضره الشاذلى ونفر من العلماء والفقهاء ليناقشوه أو ليحاكموه، وليسألوه عن نسبه مراراً وتكراراً والشيخ يجيب بما هو الحق.. وبأنه بالفعل ينتهى نسبه إلى الإمام الحسن بن على رضى الله عنهما. وسألوه عن علوم الدين والفقه فوجدوه عالماً فقيهاً، وأذهل الحاضرين بحُسن إجاباته. وبأنه ليس كما قال ابن البراء مزيفاً أو مدعياً. ويسألونه عن المريدين والتلاميذ الذين يلتفون حوله، فتأتى إجاباته بما يفيد أن هؤلاء لا خطر منهم،

وأنهم التفوا حوله للتفقه فى الدين والتبحر فى العلم وظلوا يسألونه ويسألونه ويجيبهم بما يؤكد أن الرجل برئ من كل ما نُسِبَ إليه. وعندئذ طَلَبَ منهم السلطان أن يكفوا عن تساؤلاتهم قائلا: «دَعُوه.. هذا رجل من أكابر الأولياء الصالحين». فيرد ابن البراء موجهاً حديثه إلى السلطان ليثيره «والله إنْ تركته ليدخَلن عليك أهل تونس ويخرجنك من أظهرهم. فإنهم مجتمعون على بابك: «لكن السلطان ـ الذى تأكد من علم وتقى أبى الحسن الشاذلى ـ لا يهتم بقول قاضيه. آمراً الفقراء أن ينصرفوا، ليلبث مع هذا الرجل الصالح وقتاً طيباً. وينضم إلى مجلسهما أخو السلطان، وكان كثير الاعتقاد فى الشيخ، وما إن ينتهى مجلس السلطان حتى يصحبه إلى داره.

لكن برغم ثقة السلطان، وتكريم أخيه... أدرك أبو الحسن الشاذلى أن دَسَّ وكيدَ قاضى القضاة لن ينتهيا، وهنا فكر فى البعد عن تونس إيثاراً للسلامة، وتجنباً لما قد يحدث ويُنسب إليه. ويعلم السلطان بذلك فيغضب، ويستدعى أبا الحسن الشاذلى مرة ثانية ليثنيه عن عزمه قائلا: «أى شئ يسمع به عن إقليمنا.. أنه أتاه ولى من أولياء الله الصالحين فضاق عليه الإقليم حتى خرج فاراً بنفسه!؟» فيرد الشاذلى: «ما خرجت إلا بنية الحج، وإذا قضى الله حاجتى أعود إلى إقليمكم تونس إن شاء الله تعالى». فيسمح له بالخروج ما دام سوف يعود.

لكن ابن البراء وقد أكلت الغيرة والحقد قلبه يكيد مكيدة أخرى خارج تونس لأبى الحسن الشاذلى، حيث أرسل إلى سلطان مصر الملك الكامل محمد الأيوبى رسولا يحمل رسالة منه يقول فيها: «إن هذا الواصل إليكم ـ حيث سيمر على مصر فى طريقة للحج ـ أفسد علينا بلادنا وكذلك يفعل ببلادكم!».

ولم يكد الشاذلى يصل إلى الإسكندرية حتى يقبض عليه ويُرْسَلُ فى حراسة مشددة إلى مقر السلطان، ليعقد من جديد مجلساً للقضاة والعلماء والفقهاء يحاكمون فيه هذا الوافد الذى جاء من الغرب ليفسد على المصريين بلادهم. لكن تحدث المفاجأة حيث يكتشف السلطان فى مجلسه بأن الرجل على علم وتقوى وإيمان، وأنه ليس كما وصفه قاضى قضاة تونس، وبأنه ما جاء إلى الإسكندرية إلا للمرور عليها فى طريقه للحج لا أكثر ولا أقل ويشعر السلطان بأنها مكيدة

دبرها قاضى قضاة تونس لحاجة فى نفسه، فيعتذر لأبى الحسن الشاذلى ويكرم وفادته حتى يواصل طريقه إلى الحج.

ويؤدى أبو الحسن الشاذلى فريضة الحج ليعود إلى تونس كما وعد سلطانها، ويمكث عامين يلتقي خلالها بتلميذه وخليفته أبي العباس المرسي. وخلال هذين العامين أنهى كل أموره فى تونس، وأعد نفسه للسفر إلى الإسكندرية يرافقه تلميذه أبو العباس المرسى ونفرٌ مِنْ أتباعه الذين كانوا يتزايدون كلما مر على مدينة من المدن فى طريقه إلى الإسكندرية.

وفى الإسكندرية يستقر بالقرب من كوم الدكة ببرج من أبراج السور أوقفه السلطان عليه وعلى ذريته. ليبدأ دروسه داعياً إلى اتباع طريقته، متخذاً مسجد العطارين مكاناً يعقد فيه مجالسه ليظل فى هذه المدينة ما يقرب من الأربعة عشر عاماً، إلى أن يتوفى وهو فى طريقه إلى الحج.

وبرغم أن أبا الحسن الشاذلى لم يترك آثاراً مكتوبة - حيث كان يعتبر آثاره فى تلاميذه من بعده، وذلك حين سُئل: «لِمَ لم تضع الكتب؟ فأجاب: كتبى أصحابى» - فإن للشاذلى إشارات لطيفه لبعض آيات القرآن الكريم. تعد بمثابة تفسير صوفى لهذه الآيات، وقد نبه إليها الشيخ الإمام الدكتور عبد الحليم محمود فى كتابه عن أبى الحسن الشاذلى.

ففى حديثه عن إشارات الصوفية، ومن بينهم أبو الحسن الشاذلى نبه الدكتور عبد الحليم محمود بقوله: «ينبغى أن نلاحظ أمرين:

الأول: أن هذه الإشارات لا تهدف فى قليل ولا فى كثير إلى أن تحل محل التفسيرات المألوفة.

والثانى: أن هذه الإشارات لا تتعارض مع التفسير المألوف، فهى إشارات وليست تفسيرات. ومن أجل ذلك فإنه لا تعارض بين الصوفية والمفسرين.

وكما يرى مؤرخو التصوف أن أهم القضايا التى يصر عليها النقاد لقبول هذا الفهم ألا يَدَّعِى الصوفى أولوية هذا الفهم بالصدق مع استبعاد المعاني الأخرى، بل لابد من التسليم أولا بالتفسير الظاهرى، أو بالمعنى الحرفى، ولا ضَيْر بعد ذلك أن نذكر مَعَانِىَ أخرى تتكشف للنفس الصافية، فإن هذا ثمرة الإيمان.

وإذا كان علماء الظاهر يختلفون فى تفسيراتهم ومهمتهم واجتهاداتهم ـ ويعد اختلافهم رحمة ـ فإن اختلاف أهل الحقائق رحمة من الله أيضاً، لأن كل واحد يتكلم من حيث دقته، ويجيب من حيث حاله، ويشير من حيث وجده، فتكون فيهم لكل واحد من أهل الطاعات وأرباب القلوب والمريدين والمتحققين فائدة من كلامهم.

ولذلك يرى الدكتور عامر النجار فى كتابه الطرق الصوفية فى مصر أن هذه الإشارات الصوفية فيها إثراء روحى، ولون من ألوان الكشف عن الإعجاز القرآنى، طالما أن الصوفى يؤمن بالتفسير الظاهرى للقرآن، ولا يرى أن إشاراته تقوم مقام هذا التفسير الظاهرى، فهى مجرد إشارات لا أكثر ولا أقل، وإن كان فيها إثراء روحى مشرق المضمون، ونفحة إلهية جميلة.. وبهذا الأسلوب الإشراقى الصوفى فسر أبو الحسن الشاذلى آيات من القرآن الكريم.

مثلا: فسر آية ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾[1] على هذا النحو: يقال للولى وما تلك بيمينك أيها الولى؟ فيقول: هى دنياى أنفق منها على نفسى وأهلى وإخوانى. فيقال له: ألقها. فيلقيها، فيجدها حية تسعى فى هلاك قابضها، فيأخذ حذره منها، فإذا حذر منها يُقال له: خُذْهَا ولا تخف، فكما ألقاها أولا بإذن حال بدايته فكذلك بإذن حال نهايته.

يبقى فى الحديث عن شخصية هذا الإمام الصوفى الكبير أبى الحسن الشاذلى الحديث عن أحزابه المشهورة، والحق أن أحزاب أبى الحسن الشاذلى ـ كما يقرر مؤرخوه ـ تكشف عن طاقة روحية هائلة، وقدرة خلاقة على التعبير عن الومضات الروحية، والإشراقات، والجوانب الانفعالية الإنسانية. كما تكشف عن إبداع فنى جميل، ولعل حزب البر هو أجمل أحزاب الشاذلى، الأمر الذى جعل الدكتور زكى مبارك يقول عنه: إنها خير ما أنتجت القرائح لما فيها من قوة المعنى، وطرافة الخيال.. إن فقرات هذا الحزب تحتوى على دقائق الأسرار والإشارات التى لايفهمها إلا كبار الحكماء.

---

(١) سورة طه ـ الآية ١٧.

ولعل قصة انتهاء حياة هذا الصوفى الكبير تدل دلالة واضحة على شفافية نفسه، فكما يقول الشيخ ياقوت العرش، نقلا عن شيخه أبى العباس المرسى، تلميذ أبى الحسن الشاذلى: إن أبا الحسن كان يحج فى كل سنة، فيجعل طريقه صعيد مصر، وقد حدث فى حجته الأخيرة سنة ٦٥٦ هـ، أن طلب من خادمه أن يستصحب معه فأساً وقفة وخيوطا وبقية ما يُجَهَّزُ به الميت، وقد عجب خادمه لهذا الطلب الذى لم يتعوده من قبل، فسأله عن السبب. وأجابه الشاذلى إجابة مقتضبة قائلا: «عند حُمَيْثَرى الخبر اليقين».

ووصل الإمام الشاذلى إلى حميثرى وهى بلدة على ساحل البحر الأحمر وهناك اغتسل وصلى ركعتين، بعدهما فارقته الحياة ليدفن فى المكان الذى صلى فيه بحميثرى بمحافظة البحر الأحمر.

ويقول ابن بطوطه فى رحلاته: «وقد زرت قبر الإمام الشاذلى، وعليه قبة مكتوب عليها اسمه ونسبه الذى ينتهى إلى الإمام الحسن بن الإمام على رضى الله عنهما.

* * *